دلالة الخطاب في المنجز التراثي العربي:
من قصدية الباث إلى كفاءة المتلقي
(قراءة في شروط التلفظ وسياقاته)

أ.د. قادة عقاق /
جامعة سيدي بلعباس.

الملخص:

يهدف هذا المقال إلى استقراء دلالة الخطاب في الموروث العربي، من خلال التركيز على ثلاثة عناصر أساسية مترابطٌ بعضُها ببعض، تسهم في صناعة الخطاب وتحديد دلالته، وكشف قصديته، وهي تتمثل في: الباث بقصديته الخفية أو الظاهرة، والمتلقي بمرجعيته وكفاءته، والسياق بتنوعاته وتفرعاته.

إذا كان النقد العربي القديم قد اهتم في خضم اشتغاله على النص الأدبي، بـ:

- سياقه التاريخي ،
- ومرجعية مؤلفه وثقافته وظروفه ومقصديته...

فإنه لم ينس في خضم ذلك، اهتمامه بالطرف الآخر في العملية الإبداعية، ونعني المتلقي، فوضعه في "منزلة مهمة من منازل الأدب وقَصَده بخطابه النقدي قصدا واضحا، وحثَّ الشعراء على أن يكونَ شعرُهم متجًّها إليه، فهو المُؤوِّل الذي يقف الأدب عنده وهو الغاية من كل قصد وإنشاء"[1]. حيث إنَّ "المتفهِّم لك والمتفهِّم

عنك شريكان"[2]، كما يذهب إلى ذلك الجاحظ، وهو بصدد إشارته إلى العلاقة الجدلية الموجودة ما بين مبدع النص – أو منشئه- ومتلقيه في فهمه له وتأويله إياه.

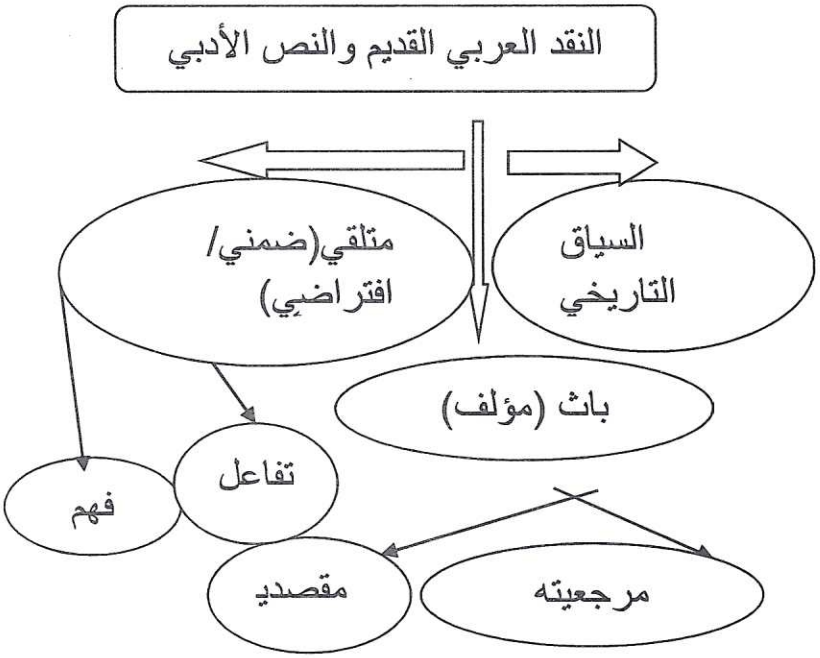

فحضور **القارئ أو المتلقي** في العملية الإبداعية لا مناص منه، ذلك أن المبدع وهو ينشئ نصه، يتوجَّه -ضمنيا- إلى قارئ أو متلقٍّ افتراضي، وهذا الأخير هو الذي يحدد – في جانب ما- معايير الجودة والرداءة، انطلاقا من مدى تأثير هذا العمل الأدبي فيه من عدمه.

وإذا كانت الظاهرة الأدبية – في إطار نظرية الأدب الحديثة - لا يمكنها أن تخرج عن منظومتين اثنتين هما:

- منظومة (المبدع/النص).
- ومنظومة (النص/ المتلقي)[3]، **فإن تراثنا لم يغفل هذا الأمر كما سوف يتبين لاحقا.**

فالخطاب الأدبي باعتباره تصرفا مخصوصا في اللغة- بوصفها المادة التي يتشكل منها في أساسه – والذي من أهدافه إثارة انفعال معين لدى متلقيه، لا يمكن إدراكُه، ومن ثمة تأويلُه من لدن هذا الأخير، إلا بمراعاة:

- **حيثيات التخاطب ومقتضياته؛ من تواضع بين الباث والمتلقي على اللغة المستعملة.**
- **ومن إدراك لأنماطٍ هذه الأخيرة ـ اللغة المستعملة ـ وعلاقاتِها الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية.**
- **بما في ذلك المقام أو السياق الذي تمت فيه عملية التواصل أو التلقي هاته.**

إذا كان ماسبق ذكره، يتعلق بالأهمية التي أولاها التراث العربي **للمتلقي** باعتياره مُؤَوِّلا للخطاب، ومفككا لشفراته في إطار سياقٍ معينٍ، **فما أهمية هذا السياق في تحديد دلالة الخطاب؟**

1.أهمية السياق في تحديد دلالة الخطاب:

وجدت دلالة السياق، باعتبارها واحدة من أهم نتائج البحث الدلالي، **من حيث اهتمامُها بأطوارِ اللفظة ومادتِها اللغوية** –في إطار تشكُّلها في تآلفٍ معنوي مع سواها في شروط مقامية

خاصة، تتحول بموجبها دلالاتُها بحسب سياق تلفظها ومقاصد مُتَكَلِّمِها وكفاءة متلقيها وظروف هذا التلقي- وجدت عناية فائقة من لدن باحثينا القدامى-على اختلاف اتجاهاتهم- تتناسب مع أهميتها في تحديد دلالة الخطاب أو الكلام. **بحيث إنك لن تجد أصوليا ولا بلاغيا أو دلاليا إلا وقد ضرب فيها بسهم أو أشار إليها بكيفية أو بأخرى عند حديثه عن الدلالة.**

1.1.الشافعي وأهمية السياق في تحديد دلالة الخطاب:

فهذا الشافعي-على سبيل المثال- نجده في معرض حديثه عن أهمية السياق في تحديد المعاني، يقول ﴿**ومن الخطاب ﴿ما يُبَيِّنُ سياقُه معناه**"[5].

2.1. الجاحظ وضرورة اعتماد السياق أو مراعاة المقال للمقام:

كما أن للجاحظ إشارات عديدة متناثرة في كتبه يتنبه فيها إلى مسألة السياق "**الذي يفرض على المتكلم استخدام سجل بعينه على مستوى الدلالة وعلى مستوى التركيب في الوقت نفسه**[6]، وهذا جانب مهم في فكر الجاحظ -كما يرى حامد أبو زيد وهو محق في ذلك- يستحق دراسة مستقلة، إذ يكفي أن نشير هنا إلى تنبهه (الجاحظ) "لخصوصية الاستخدام اللغوي للمجاز، حيث يرى أن المجاز لا يصح استخدامه في مجال المعاملات النفعية المباشرة. فيقول للناس "**أن يضعوا كلامهم حيث أحبوا إذا كان لهم مجاز إلا المعاملات**"[7]، لأن سياقها العام، وغرضها النفعي الإيصالي المباشر لا يستلزم ذلك، بل ويجعله غير مستساغ.

كان هذا فيما يخص أهمية السياق في تحديد معنى الخطاب وضبط دلالته. فماذا عن أهميته في إعانة القارئ على فك شفرات النص وفتح مغالقه، ومن ثمة التعرُّف إلى قصدية منشئه؟

1.2.1 . دلالة السياق وقصد المتكلم:

- **ابن قيم الجوزية: دلالة السياق/ قصد المتكلم**

يذهب (ابن قيم الجوزية)، في هذا الصدد ـ قارنا دلالة السياق بقصد المتكلم ومراده ـ إلى القول:

"السياق يُرشِد إلى تبيين المجمل وتعيين المحتمل والقطع بعدم احتمال غير المراد وتخصيص العام وتقييد المطلق وتنوّع الدلالة، وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم فمن أهمله غلط في نظره وغالط في مناظرته، فانظر إلى قوله تعالى: ﴿ ذُق إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الكَرِيمُ﴾ كيف تجد سياقه يدل أنه الذليل الحقير"(8).

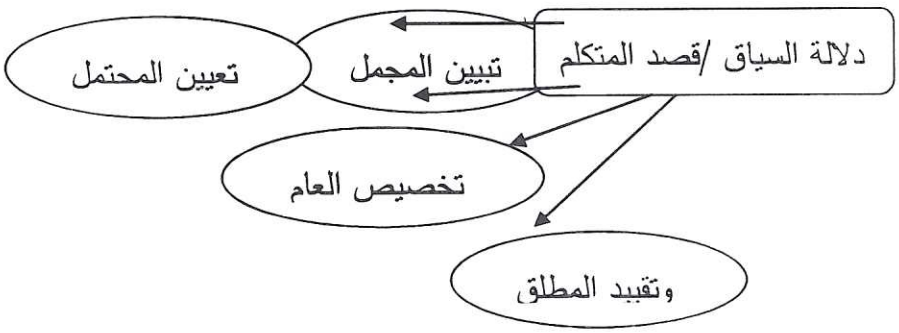

ويُلَخِّصُ التهانوي مجمل جهود علماء العربية في ميدان الدلالة، موضحا اعتمادهم (السياق) في تحديد دلالة الكلام، مركزا على **قصد** المتكلم، في كتابه (كشاف اصطلاحات الفنون) فيقول:

"وبالجملة فأهل العربية يشترطون القصد في الدلالة، فما يُفهم من غير قصد من المتكلم لا يكون مدلولا للفظ عندهم، فإن الدلالة عندهم في فهم المقصود لا في فهم المعنى مطلقا"[9].

وغني عن البيان **أن قصد المتكلم لا يتحقق إدراكه إلا من خلال السياق**، الذي يعني في ما يعنيه:

- النظم اللفظي للكلمة ودلالتها داخل التركيب، وموقعها فيه.
- والمعنى الذي يقصد إليه واضعُها في ذلك التركيب، بوضعها على الشكل الذي وضعها عليه[10].

إنها بعبارة أخرى تلك الدلالة (**المتغيرة**) المفهومة من السياق، أي من التركيب، بغَضِّ النظر عن المعنى المعجمي (السكوني) للكلمة.

3.2.1.عبد القاهر الجرجاني: السياق بين القصد والغرض:

ونجد عبد القاهر الجرجاني في (الدلائل) يركز كثيراً على قضية (**القصد**) هذه، مفرقا بين المعنى الناتج عنها وبين مسألة (**الغرض**)، رابطا ذلك بإشكالية اختلاف العلاقات النحوية، مشيراً إلى أن اختلاف هذه الأخيرة يؤدي حتما إلى تغيير المعنى، على الرغم من اتفاق العلامات اللغوية المستخدمة في سياقين، **لأنّ اختلاف**

"النظم" يؤدي إلى اختلاف في المعنى-كما يعبّر- ولذلك نجده يفرق بين "الغرض" و"المعنى"، من حيث كون هذا الأخير هو نتاج تفاعل علاقات السياق، ولهذا فـ "المعنى" عنده هو الفيصل بين عبارة وعبارة من حيث الأفضلية، بحيث إنه لا يكون لإحدى العبارتين مزية على الأخرى حتى يكون لها في المعنى تأثير لا يكون لصاحبتها"[15].

فالفرق مثلا: -كما يقول- بين عبارتي: "زيد كالأسد" و"كأن زيداً الأسد" هو فرق في "المعنى" على الرغم من أن "الغرض" واحد، وهو تشبيه زيد بالأسد[16].

فعبد القاهر الجرجاني من خلال هذا الاتجاه، ينكر الدلالة المفردة للكلمة، ويؤكد البحث عنها متكاملة في التركيب والسياق المتكامل[17]، مشيرا إلى أنه يستحيل إدراك معنى الوحدة اللغوية الأولى في عبارة ما، إلا بالتعرّف إلى الوحدة الأخيرة فيها، وهذا من خلال التعرف إلى وجوه التعلق الاسنادية الرابطة بين وحداتها داخل التركيب وعلاقاتها الوظيفية: كالفاعلية، والمفعولية، والحالية، والنعتية، والظرفية، والتمييز...[18]

يتبيّن لنا من خلال هذا الطرح الذي يورده عبد القاهر، أنّ معاني الكلمات أودلالاتها، **هي نتائج لا يُتَوَصّل إليها إلا من خلال تفاعل الامكانيات التفسيرية لكامل الكلام، أي لمجموع مكونات النص السياقية**

4.2.1.ابن خلدون والدلالة السياقية للنص:

هذا ونجد ابن خلدون في مقدمته، وهو بصدد الحديث عن أصول الفقه وما يتعلق به من جدل وخلاف، يعطي تصورا عن **الدلالة السياقية النصية**، وإن كان لا يختلف كثيرا عن التصور التراثي لها، إلا أنه يتميز ببعض الوضوح والدقة، من حيث تركيزُه على:

- **وجوب المعرفة المسبَّقة بالدلالة الوضعية الأصلية.**
- **ثم الإلمام بمؤثرات النص الموقعية، وتفاعل الصيغة التركيبية في الجملة مع القيمة الصرفية وإطار الموضوع الذي تكُون اللفظةُ جزءاً منه**[20]، حيث يقول: "...**ثم بعد ذلك يتعيَّنُ النظر في دلالة الألفاظ، وذلك أن استفادة المعاني على الإطلاق من تراكيب الكلام على الإطلاق يتوقف على معرفة الدلالات الوضعية مفردة ومركبة**"[21].

وهو تصوُّرٌ-كما نرى- ينسجم مع تلك التصورات التراثية التي سبقت لنا مناقشتها، ولا يخرج عن إطارها.

ولم يُبدِ اللغويون والدلاليون العرب القدامى اهتمامهم بالدلالات المركزية والسياقية فقط، بل اهتموا بكل ما يحيط بهذه الأخيرة من ألوان وظلال، ومعان وحواف؛ مثل تلك الشحنات العاطفية، التي يحملها الكلام المبطن بالأحاسيس والمشاعر المعبرة والمواقف الشخصية[22].

كما اهتموا أيضا بالحمولة **الفكرية** التي تنطبع بها جملة أو نص ما، بما في ذلك الخلفية التاريخية للعلامة المفردة داخل التركيب[23]، وآفاقها الدلالية ومجالات استعمالاتها الشرعية والوضعية وغيرها مما لا يتسع المجال لذكره ههنا[24]، على اعتبار أن اللغة -كما يجترح **ابن جني**- هي **"أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"** [25]، وهذه الأغراض هي بالضرورة متعددة ومتشعّبة بتشعّب مناحي الحياة.

فقد تكون ذات غاية عاطفية تأثيرية، كما قد تكون ذات مغزى فكري، هذا فضلا عن دلالتها الاجتماعية المتغيّرة، وطابعها العُرفي الذي يكسبها فاعليتها وحركيتها من خلال ذلك الاستعمال الاصطلاحي الجاري بين أبناء المجتمع اللغوي الواحد، لأن **"الطبيعة الإنسانية محتاجة إلى المحاورة لاضطرارها إلى المشاركة والمجاورة" كما ينص ابن سينا**[26].

5.2.1.. دلالة السياق وكفاءة المتلقي:

لم ينس الموروث العربي، في خضم اهتماماته بالدلالة السياقية وتركيزه على قصد المتكلم، وملاحظة حاله لمعرفة مراده، الاهتمام بحال المتلقي ووضعيته، حيث التفت علماؤنا بالكيفية نفسها إلى حال **السامع** (المتلقي)، وتبيان دوره وأهميته في العملية الدلالية، في أثناء حديثهم عن الدلالة الحقيقية والإضافية والهامشية والعرضية وغيرها.

ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر، ما نجده في قول ابن قيم الجوزية: **دلالة النصوص نوعان: حقيقية وإضافية، فالحقيقية تابعة لقصد المتكلم وإرادته، وهذه الدلالة لا تختلف، والإضافية تابعة لفهم السامع وإدراكه وجودة فكره وقريحته وصفاء ذهنه ومعرفته بالألفاظ ومراتبها، وهذه الدلالة تختلف اختلافا متباينا بحسب تباين السامعين في ذلك**"[29].

إنّ الدلالة الإضافية أو الهامشية أو العرضية أو "إشارة النص" بحسب تعبير الأصوليين[31]، هي **دلالة غير أساسية**، لكونها غير ثابتة؛ بحيث تختلف من موقف لآخر، وبحسب اهتمام المتلقي ومرجعيته الثقافية وقدرته التأويلية ومجال اختصاصه[32]. بل وحسب أمزجة الناس ونفسياتهم -كما رأينا عند ابن قيم الجوزية- وعاداتهم وتجاربهم.

يجد المقارن بين بعض هذه الطروحات التراثية المشار إليها آنفا، وبعض طروحات المنجز الدلالي واللغوي الغربي الحديث كثيرا من نقاط التقاطع والالتقاء -مع بعض الاختلافات في التفاصيل طبعا والتي لها أسبابها المتعددة ولا يتسع المجال لذكرها- سواء من حيث:

1. العناصرُ المكونة للسياق والعلائقُ الرابطة بين هذه العناصر وأهميتها في إدراك المعنى.
2. أو من حيث قصدُ المتكلم وحالتُه وحالةُ السامع وتكوينُه الثقافي ومقامُ التلفّظ,
3. أو من حيث تلك التغيّرات التي تطرأ على العلامة اللغوية في أثناء وضعها في جملة ما أو ضمن سياق معين، أو حين ارتباطها بما قبلها وما بعدها، ونقصد هنا تحديدا (الدلالة النحوية)*، كون

العلاقات النحوية أو مواقع الكلمات في الجملة والنسب والعلاقات القائمة بينها ذات تأثير في تحديد الدلالة (التقديم، التأخير / الفاعلية، المفعولية...)[42].

- أو من حيث أنواع الدلالات الأخرى المؤثرة في المعنى:

1. كالدلالة الصوتية (تغير الوحدات الصوتية والحركات الإعرابية)[43].

2. أو الدلالة الصرفية من حيث تأثير الصيغ الصرفية على الدلالة[44].

3. بالإضافة إلى الدلالة المعجمية التي جاءت من أجل تفسير الغريب من الألفاظ في القرآن، فتمخضت عن ذلك جهودٌ رائدةٌ شكلت بدايات هامة لصناعة معجمية عربية أصيلة[45]. ففرقوا من خلال هذا كله -من خلال تفطنهم إلى مختلف أنواع الدلالات السالفة الذكر- بين المعنى العرفي والوضعي، والمعنى الشرعي، والمعنى المجازي والحقيقي[46]، مبينين التطور الدلالي الذي يمكن أن يطرأ على اللفظة في استعمالاتها المختلفة، وانتقالها من مجال دلالي إلى آخر، بحيث يكون لمعناها معنى آخر.

الهوامش والإحالات:

1. محمد المبارك، استقبال النص عند العرب، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، ط1، 1991، ص.9.

2. الجاحظ "أبو بحر عثمان"، البيان والتبيين، تح. عبد السلام هارون، دار بيروت، د.ت، ص.11.

3. ينظر: بوجمعة بوبعيو، النص الشعري بين الإبداع والتلقي، مجلة المعرفة، وزارة الثقافة، سوريا، العدد 932، سنة 1991، ص. 179.

5. الشافعي، الرسالة، تح. أحمد محمد شاكر، مطبعة البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، ط1، 1940م، ص .2.

6. حامد أبوزيد، العلامات في التراث، في أنظمة العلامات (مدخل إلى السيميوطيقا)، (م.س)، 123.

7. المرجع نفسه والصفحة نفسها، وينظر أيضا : الجاحظ، الحيوان 4/ 76

8. ابن قيم الجوزية، بدائع الفوائد، المطبعة المنيرية بمصر، د.ت، 4/ ،9. 10.

9. التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، 2/ 291.

10. لمزيد من الاطلاع على هذه القضية ينظر:ابن جني، الخصائص1/ 248 وما بعدها، حيث يوضح هذه الإشكالية بتفصيل أكثر حين حديثه عن الروايات اللغوية ومشاهدة اللغويين لرواتها. والاطلاع على طرق استعمالاتهم للألفاظ، وأثر هذه المشاهدة وهذا الاطلاع في تحديد الدلالة. وهو يتشابه في هذا إلى حد ما مع ما ذهب إليه العالم الانثربولوجي(مالينوفسكي) الذي يعترف بأنه لم يستطع فهم كثير من لغات المجتمعات البدائية إلا من خلال السياقات التي يستعملها فيها هؤلاء. وهو ما سيتم التطرق إليه بعد قليل.

11. سورة آل عمران الأية. 48.

12. سورة فصلت الأية 41.

13. سورة آل عمران الآية 64.

14. سورة الحجر الآية04.

15. عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز 258.

16. لمزيد من التفصيل في هذه القضية، ينظر: المصدر نفسه، 258 و 425.

17. انظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز 14، 16 من المقدمة.

18. لمزيد من التفصيل انظر: م.ن، ص.ص.412، 414.

20. ينظر: فايز الداية، علم الدلالة العربي 278.

21. ابن خلدون، المقدمة، 419.

22. بعض أسماء الأماكن المذكورة في المقدمات الطللية مثلا، وعاطفة الشاعر اتجاهها، وفي بعض المواقف الرثائية الصادقة، وفي كل المواقف العاطفية المؤثرة.كلفظة، (الصحراء) مثلا وما تثيره في المخيلة العربية وما توحي به من عوالم

قد تدل على سعة الآفاق والانطلاق والحرية وغيرها، عكس ما يمكن أن تثيره في مخيلة غير العربي: (القسوة، شظف العيش، الحروب والتمزق...).

23. على اعتبار أن الإنسان، يفكر باللغة ويلغو بالفكر، كما قيل. واللغة ليست بريئة أبدا، وعليه فإن اللفظة لا يمكنها إلا أن ترد -ضمن سياق تركيبي ما- محملة ببعض الملامح الفكرية والشحنات العاطفية، سواء أشاء مُنشِؤها ذلك أم لم يشأ.

24. لمزيد من الشرح والتفصيل في هذه القضايا ينظر :

- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز ،14،16
- ابن جني ، الخصائص،1/ 248 وما بعدها.
- أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، 50،51
- السيوطي ، المزهر في علوم اللغة 1/ 16 وما بعدها

بالإضافة إلى كل كتب فقه اللغة ورسائل علماء الأصول، كرسالة الشافعي مثلا.

25. ابن جني، الخصائص، (م.س) 1/ 33

26. ابن سينا، العبارة، ص.ص. 1-2

29. ابن قيم الجوزية، أعلام الموقعين،1/ 350، 351

31. في عبارة للشريف الجرجاني، يوضح فيها (الدلالة) عند الأصوليين، يقول فيها "دلالة اللفظ على المعنى باصطلاح علماء الأصول محصورة في عبارة النص وإشارة النص ودلالة النص، واقتضاء النص"، أنظر: كتاب التعريفات، طبعة مصطفى الحلبي ، القاهرة، مصر، هـ، ص 72 .

-كما قسمها الحنفية إلى أربعة أقسام أيضا هي:"دلالة العبارة"و"دلالة الاشارة"و"دلالة النص" و"دلالة الاقتضاء"، ينظر: الشيخ محمد أبوزهرة، أصول الفقه، دار الهنا للطباعة، دار الفكر العربي، القاهرة 1958 م، ص110.

32. ربما لهذا السبب نرى الجاحظ يلح على ضرورة مخاطبة الناس بما يفهمون بحسب مقدرتهم ووفق طبقاتهم، حيث يرى بأن الاستعمال اللغوي يتفرع إلى مستويين، أولهما مستوى عادي إخباري يخلومن كل سمة فنية، وهو مستوى يراه ملائما لطبقة معينة من المجتمع يسميها أحيانا (العامة) وأحيانا أخرى (الناس)، أما المستوى الثاني فهوذلك الاستعمال الفني للكلام اللغوي، والذي يقتضي في نظره السياسة والترتيب والرياضة وإحكام الصنعة، وهو موجة إلى الخاصة لكونه متميزا. ينظر: البيان والتبيين 1/ 20، 14، 161،162

وهوهنا يتقارب إلى حد ما مع ما ذهب إليه (بن جني) في تركيزه على المشاهدة والاطلاع على الروايات اللغوية لما لها من أهمية في تحديد دلالة اللفظة سياقيا، ينظر الهامش رقم **51**.

* مصطلح، (الدلالة النحوية) يقابله مصطلح (علم الدلالة التركيبي) في البحث اللغوي الحديث.

42. ينظر في هذا الصدد: السيوطي، المزهر في علوم اللغة، **1/ 41** وما بعدها.
– ابن جني، الخصائص **1/ 184**.

43. حيث يؤدي تغيير وحدة صوتية في لفظ ما إلى تغير في دلالته مثلا: (كتب، كتم، كسب) وهذا ما كان قد عالجه (ابن جني) في الاشتقاق الأكبر، انظر كتابه الخصائص. كما أن تغيير الحركات الإعرابية يؤدي إلى تغيير في المعنى، فهي مثلا تفرق بين الاسم والفعل: (ذهبْ، ذهبَ)، وبين اسم الفاعل واسم المفعول (مُكمِل، مكمَل) ، وبين الاسم واسم الفاعل (مَعين، مُعين).. إلخ.

44. مثل: فعَل، فعَّل، فعال ...الخ وهويقابل مصطلح (المورفيم Morphéme) في اللغة الأجنبية.

45. نشير في هذا الصدد على سبيل الذكر لا الحصر إلى:
– مجاز القرآن لأبي عبيدة.
– غريب القرآن لابن قتيبة.
– الزينة للرازي.
– الجمّان في تشبيهات القرآن لابن تاقيا البغدادي .
– معجم العين للخليل بن أحمد الفراهيدي (اعتمد في تركيبه على مخارج الحروف).
هذا على الرغم من عدم مراعاتها لأي اعتبار معين في ترتيبهم لدلالات الألفاظ، كالمجال الدلالي مثلا.

46. كلفظ(الصلاة)، حيث المعنى الوضعي الحقيقي: الدعاء،والمعنى الشرعي تلك الحركات والسكنات
التي يقوم بها المسلم خمس مرات في اليوم اتجاه ربه، أوما يقوم به غير المسلم من عبادات ... ولفظ (الزكاة) : الزيادة والنمو/ ذلك المقدار من المال الذي يخرجه المسلم كل سنة عن ماله عندما يبلغ نصابا معينا ويحول عليه الحول.